



حوزة قم المقدسة؛ عظمة التاريخ وتحديات الحاضر والمستقبل

الكاتب: سماحة الشيخ علي الخطيب؛ نائب رئيس "المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى" في لبنان

الأبحاث و المقالات المنشورة لا تعبر عن رأي «الأفاق» بالضرورة، بل تعبر عن رأي أصحابها

مقدمة

ندرك اليوم أكثر من أي وقت مضى سر الحضور المشرف لمدينة قم في كلام أئمة آل البيت عليهم السلام، ففي الحديث الشريف عن الصادق عليه السلام: «ستخلو كوفة من المؤمنين، ويأزر عنها العلم كما تأزر الحية في جحرها، ثم يظهر العلم ببلدة يقال لها قم، وتصير معدنا للعلم والفضل، حتى لا يبقى في الأرض مستضعف في الدين حتى المخدرات في الحجال، وذلك عند قرب ظهور قائمنا، فيجعل الله قم وأهله قائمين مقام الحجة، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها، ولم يبق في الأرض حجة فيفيض العلم منه إلى سائر البلاد في المشرق والمغرب، فيتم حجة الله على الخلق، حتى لا يبقى أحد على الأرض لم يبلغ إليه الدين والعلم، ثم يظهر القائم عليه السلام».

ويبقى هذا الحديث الشريف على عاتق أهل العلم والفضل عبء تطبيق معيار العالمية في نشر الإسلام بأساليب وطرق عصريّة تتناسب مع الخصوصيات الثقافية لكل أمة أو شعب في العالم.

وتشكل الجمهورية الإسلامية الإيرانية اليوم تلك الإنطلاقة الراسخة لمشروع العالمية الإسلامية الجديدة ببركات الثورة الخمينية التي تنبأ بها الإمام الكاظم عليه السلام عندما قال: «رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحق، يجتمع معه قوم كزبر الحديد، لا تزلهم الرياح العواصف، ولا يملون من الحرب، ولا يجبنون، وعلى الله يتوكلون، والعاقبة للمتقين».

وفي كلام الإمام الصادق عليه السلام ما يطمئننا إلى أن هذه الإشراقية وهذه الشعلة ستستمر برعاية الله سبحانه وتأييد صاحب العصر إلى أن يأذن الله له بظهوره المبارك عليه السلام قال: «لأحد اصحابه واسمه عفان البصري: أتدري لم سمي قم؟ قلت: الله ورسوله وأنت أعلم، قال: إنما سمي قم لأن أهله يجتمعون مع قائم آل محمد عليه السلام ويقومون معه ويستقيمون عليه وينصرونه».

عظمة التاريخ

كانت مدينة قم المقدسة بلدة عامرة بالعلم والفقه منذ القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، وذلك إلى أواخر القرن الرابع، حيث اكتظت ومنها انتشر العلم إلى سائر الأمصار. فالمحدثون الفقيوه عرفوا في سماء الحديث والفقه، وكفاك أن إبراهيم بن هاشم، وإبنه علي بن إبراهيم، وأحمد بن محمد بن خالد البرقي وأحمد بن محمد بن موسى الأشعري، ومحمد بن أحمد بن عمران الأشعري، وغيرهم من جهاذة الحديث والفقه خريجو مدرسة قم، وقد تركوا مصنفات ثمينة بقيت مصنوعة عن حوادث الزمان. وتجمع المصادر على اعتبار قدوم السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام ووفاتها (201) هـ / 817 م من أهم المحطات التاريخية في المدينة. فطلالما كانت مقامات الأئمة والصالحين من أحفاد البيت النبوي الشريف مراكز للعلم والنور والروحانية الخاصة، تعززت في حالة قم بالإرتباط العاطفي والروحي بين المجتمع المحلي وآل البيت عليه السلام.

وقد برزت ملامح النشاط العلمي

الشيعي في قم منذ القرن الرابع الهجري، وبرز فيها محدثون كبار كالشيخ الصدوق (المتوفى 381هـ)، وتحولت قم تدريجياً إلى مركز لنسخ وحفظ روايات آل البيت عليه السلام، قبل أن ينتقل زخم الحوزة الشيعية إلى النجف الأشرف وكربلاء.

وفي الحقبة الصفوية (1501-1736م)، أعاد الصفويون إحياء المذهب الشيعي الاثني عشري كمذهب رسمي للدولة، واهتموا بمدينة قم. فجددوا بناء مرقد السيدة المعصومة وزين بالقباب والمآذن. كما أصبحت المدينة وجهة للحجاج والعلماء، وازداد العمران والنشاط الديني فيها.

ويبقى الحدث الأبرز هو تأسيس آية الله الشيخ عبد الكريم اليزدي الحائري (1274 1355 هـ)، للحوزة الشريفة في قم سنة 1340هـ بعد أن جمع زبدة علوم النجف الأشرف وأراك وما استفاده من أستاذه السيد محمد الفشاركي (المتوفى 1315هـ) والمحقق الخراساني قبل أن يستقل في التدريس... وشاعت الأقدار أن تكون هذه الحوزة العلمية سداً منيعاً أمام التيارات العلمانية والإلحادية في زمن تغول الغرب الاستعماري والمنافسات الشرسة على موارد العالم ومستقبل دوله وشعبه وأبنائه.

وبعد ذلك التأسيس المبارك وعلى الرغم من المحن ومحاولات التشويه للإسلام والتشيع، ما عاد بالإمكان فهم التجربة الإسلامية وتطور علوم الإسلام في القرن العشرين بعيداً عن قم وعلمائها ونتائجها في الحقول المختلفة.

يقول السيد القائد الخامنئي (دام ظلّه): «إن الشهداء العظماء والعديدين من الحوزات العلمية الشيعية الذين يعتبر بعضهم كالشهيد الأول والشهيد الثاني رضوان الله عليهما من علماء الصف الأول في الحوزات، يشهدون شهادة عظيمة على جهاد علماء الدين في عصر التقية والعسر، الذين كتبوا رسائلهم العلمية والعملية بدم الشهادة وجر الدماء».

إن خدمات المرحوم آية الله الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي والمرحوم آية الله البروجردي خلال فترة إدارتهما للحوزة العلمية في قم جديرة بالاهتمام البالغ. وقد كان الإمام الخميني عليه السلام يذكر دائماً

المرحوم الحائري وبساطة عيشه في أوج سلطانه وزعامته بكل خير، وكان يثني عليه من حيث العلم والإخلاص والزهّد والتواضع والتقوى وحسن المعاشرة.

إن تأسيس حوزة علمية دينية في مدينة قم خلال المئة عام الأخيرة وبإدارة هؤلاء العظماء وأنصارهم المخلصين، كانت له آثار لا يمكن أن تمحوها محاولات الظالمين في هذا العالم.

ولم يكن تشكيل الحكومة الإسلامية في إيران الثورة؛ إلا تنويجاً للإنجازات القيمة لأفكار عظماء الدين بقيادة رجال الدين الثوريين الشيعة وتوجيه الحركة الثورية للشعب، مما أدى إلى تشكيل النظام الإسلامي القائم على الفقه الذي فتح آفاقاً جديدة أمام المجتمع العالمي والمتشوقين للحرية والخلاص. انتهى

لقد كانت الحوزة العلمية في قم وما تزال ذخراً للإسلام المحمدي الأصيل ونبعا لأهم تحولات ثوري في تاريخ الأمة والعالم المعاصر، وإننا إذ نحتفل بمرور قرن على تأسيسها نتطلع إلى عصر تقود فيه الحوزة تجربة الحضارة والتقدم الإسلامي والإنساني من جديد تمهيداً للظهور المبارك لصاحب العصر والزمان عليه السلام.

٢. الفرصة والتحديات

إن المتأمل بعظمة هذا التاريخ ونجاة مدرسة أهل البيت عليه السلام في عصور الظلم الطويلة، يلاحظ الألفاظ الإلهية التي سخرت هذه النفوس العالية والعقول المتوقدة برعاية صاحب العصر وأرواحنا له الفداء.. ولكن هل انتهى التحدي؟ بالتأكيد نحن اليوم أمام تحديات بحجم الأمة والعالم وطلالما كان إزهاق الباطل أصعب من إحقاق الحق كما تبين لنا تجربة أمير المؤمنين عليه السلام في سنوات حكمه القصيرة.

لا يوجد شك بأن الحوزة قد تفاعلت مع الإنجاز العظيم بإقامة الحكومة الإسلامية في إيران الإسلام وبفضل عبقريّة القائدين الكبيرين السيد الخميني عليه السلام والسيد الخامنئي (دام ظلّه) منحت الحوزة حرية البحث العلمي على طريقة الفقه الجواهري كما عبر الإمام الخميني في وصيته، ولكنه أوصى أيضاً بزيادة الأبحاث وفتح النوافذ الجديدة في هذه المدرسة المباركة.

وبالفعل نهضت الحوزة وجامعة



تأثير الحصار الإقتصادي على الحياة اليومية للمواطن الإيراني. ثالثاً: لنبدع في التوفيق بين الاصالة والإنفتاح في كتابة الفقه بلغة القانون وتبسيط المطالب وتقديمها للحياة مرجعاً لحكم القضاة وسلوك الأفراد.

رابعاً: إيلاء البحث العلمي في الإقتصاد أهميته التي يستحقها في عصر استخدام الإقتصاد كسلاح الحصار الجمهورية الإسلامية وتحريض الشعوب للعودة إلى بيت الطاعة الغربي والأميركي. وتفعيل طرق الإنفاق الإسلامية التي تحول المال إلى دورة دموية للإقتصاد الوطني أو نهر جار يسقي كل شرائح المجتمع ويحمي الطبقة الوسطى ويكافح الفقر، في مقابل احتكاره من قبل النظام الربوي والتحكم بالناس من خلال افتعال ندرة المال وتحويله إلى دولة بين الأغنياء في النظام الرأسمالي المعاصر.

خامساً: إن حوزة قم جامعة عالمية تحتوي اليوم على طلبة من تسعين دولة في العالم، فكيف نستفيد من عقول العالم للتفاعل مع العالم؟ هذا سؤال كبير فقد رأينا كيف يحكم الأميركي والأوروبي الأدمغة ويصفي المتمردة منها ليتمكن من أن يبقى مسيطراً على الإنسانية. بعقول النوايا منها... وهو عنصري لا يحترم الآخر فكيف والإسلام عالمي بطبيعته يحترم الإنسان أينما كان ويعزز فطرته السليمة ويدافع عنها وقد أريد له اليوم أن يظهر بأشع صور التكفير والإرهاب ويفترب حتى عن نفسه.

وأخيراً: لديكم في لبنان مؤسسة ولدت على يد فقيه من فقهاء قم وهو الإمام السيد موسى الصدر أعاده الله وأخويه، وأنشرف اليوم بتمثيلها في مؤتمرهم هذا، ومن البداية كانت هذه المؤسسة جسراً بين جبل عامل وشيعة لبنان من جهة والثورة الإسلامية الإيرانية وهي بعد في بداياتها، ولا نزال بكل تواضع على العهد نتصدى لكبر حملة همجية يتعرض لها لبنان وشيعة لبنان، وانتهاز هذه الفرصة التميّنة لأجدد العهد بين المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان والحوزة المباركة في قم طالباً المزيد من التعاون والعناية بلبنان الجريح الذي فقد نخبة من مجاهديه في العدوان الأخير وعلى رأسهم سماحة سيد شهداء الأمة السيد حسن نصر الله رضوان الله عليه. ونحرص على استمرار التعاون التاريخي بين جبل عامل وحوازاته والحوزة العلمية في قم المقدسة، حيث لا زالت جهود علماء جبل عامل مخلدة بفضل جهود أعمدة الحوزة العلمية وأسائنتها من الشهيدين الأول والثاني إلى المحقق الكركي والشيخ البهائي والشيخ محمد حسن علي الموسوي الجبعي صاحب المدارك.....

وأطمئنكم رغم كل الجراحات أننا لا نزال جبهة متماسكة متراصة مؤمنة بحتمية النصر ولو بعد حين. والذين جاهدوا فينا لنهذبهم سيلنا وإن الله لمع المحسنين (العنكبوت 69)

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المدرسين فيها مدركة لأهمية الفسحة التي أتاحتها الثورة الإسلامية الأعظم في القرن العشرين، وتغيرت واجبات ومهام جماعة المدرسين، حيث تحولت من مناضلة ضد النظام الجائر إلى مشاركة في تأسيس وتثبيت الحكومة الإسلامية وفي مجالات شتى أهمها التصدي التحديات الدولية العادلة ومسؤولياتها.

٣. اقتراحات

كمراقب محب وحريص أظن أن الإخوة القيميين على عمل الحوزة المباركة يدركون حجم التحديات التي تواجه الجمهورية الإسلامية المباركة من الداخل والخارج، كما يعرفون بلا شك أن كل مؤتمرات العالم لن تفلح في إجهاد هذه التجربة المباركة إذا كان المجتمع الإيراني داعماً لها وملتفاً حولها. ومن جهة أخرى لا يمكن إنكار التحدي الذي يشكله التقدم التقني في مجال الضلال والإضلال ومن هنا فإنني أتقدم بهذه الاقتراحات كبضاعة مزجاة فأنا طالب من طلاب هذه الحوزة فما أقوله منكم وإليكم أولاً: لابد من تطوير أساليب التبليغ بحيث تصبح منصات التواصل ساحة صراع مع المحتوى الهابط السائد فيها فقد قال السيد شرف الدين قدس سره مرة: لا ينتشر الهدى إلا من حيث تنتشر الضلال وعلى اساس هذه القاعدة كان تأسيسه للكلية الجعفرية في صور سنة 1936. فليكن لنا محررات البحث البديلة عن غوغل كما فعلت الصين، وليكن لنا التطبيقات التي تتحدى التيك توك والإنستغرام ولنعمل على تدريب وتهينة دعاة العصر من كافة شرائح المجتمع، نشرح بلغة ذكية أهمية وفائدة الإلتزام بالأحكام والتعاليم والمفاهيم كما تقدمها مدرسة الإسلام المحمدي الأصيل، فما عادت المبادرات الفردية كافية لتلبية الحاجة في عصر الأجهزة المزودة بالذكاء الإصطناعي وجيوش المضلين سواء من الغرب أو من المتغربين في الشرق.

ثانياً: نعتمد أساليب البحث العلمي الإحصائي الحديثة في دراسة التحولات الإجتماعية مع الإسلام أو بعيداً عنه، ولنضع نتيجة معطيات هذه الأبحاث مؤشرات الأداء التي تحدد الشرائح المستهدفة في المجتمع التي ينهشها سرطان التغريب والثقافة الإستهلاكية التي تزيد من

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.